جامعة سيدة اللويزة

الأربعاء ٩ آذار ٢٠٠٥

صورة الأدب العاملي
من خلال الشاعر موسى الزين شرارة

للدكتور صادق مكي

عندما اخترت هذا العنوان لحديثي هذه العشيّة في جامعة سيدة اللوزية رائدة النهضة الفكرية والأدبية اللبنانية في هذه الفترة من الزمن، بما تعنى الريادة من المعاني، كنت أقصد الى أمرين: **أولهما**: الحديث عن حركة الفكر العاملي، مركزاً على الأدب العاملي بصورة خاصّة، لشعور عندي بأن هذا الأدب يشكل تراثاً ضخماً في الأدب العربي والفكر الإسلامي بصورة عامة، ما استطاعت الدراسات السابقة أن توفيه حقه، ولا يعرف عنه اللبنانيون كثيراً، وهي تشكل في ذاتها ظاهرة هامّة جداً، يمكن لها أن تلخّص حالة الأدب العربي في فترة معينة من الزمن، كما أنها تنفرد بخصوصيات تميّزها عن سواها، وتعطيها مزايا وصفات خاصة بها.

والحديث عن حركة الأدب العاملي لا يقصد منه الحديث عن حركة أدبية مستقلة تنتقض على الأدب العربي وتنشقّ عنه، وإنما هو حديث عن فرع من أصل، يحمل كل صفاته، ويعيش أطواره وظروفه، وله جميع خصائصه ومزاياه، ونتكامل معه وعملنا لا يعدو كونه إلقاء الضوء على حالة خاصّة، يشكل الكشف عنها ودراستها خدمة للأدب العربي في تطوّره الحديث، وابرازاً للمساهمة التي قدّمها فريق من هذه الأمة للأمة بصورة عامّة، وللثقافة والفكر العربي، هذا بالإضافة الى شعور عندنا أن الحوار الوطني الذي يقصد منه الى خير الوطن وتحصينه وبنائه على أسس سليمة تقوم على المكاشفة، ومعرفة الآخرين حق المعرفة، من حيث الفكر والأدب والحضارة، والإسهام الحضاري، والتاريخ...

والثاني هو التعريف بالشاعر موسى الزين شرارة، وهو في رأينا من الأفذاذ في تاريخ الأدب العربي في العصر الحديث، ويمثّل الأصالة دون تحجّر وينطلق في منطلقات الحداثة الملتزمة دون شطط.

ولهذا كان اختيارنا لهذا الشاعر بالذات ليكون النموذج الأمثل لهذه الحركة الفكرية العاملية، ذلك لما عنده من غزارة الإنتاج، وبلاغة التعبير وفصاحة الألفاظ، ومتانة السبك، ومرونة الجملة، والصور البديعة... مما يجعل صورة الأدب العاملي واضحة أمام الباحث المطّلع والذي يهمّه أن يكوّن صورة عن هذا الأدب.

أما النقاط التي سوف نتناولها في بحثنا هذا فهي:

أولاً: بيئة الأدب العاملي (قصة الأدب العاملي)

ثانياً: ملامح النهضة الفكرية العاملية في العصر الحديث (مطلع القرن العشرين)

ثالثاً: موسى الزين شرارة (الشاعر الثائر)

رابعاً: موضوعات تناولها موسى الزين شرارة في شعره.

أولاً: بيئة الأدب العاملي (قصة الأدب العاملي):

تبدأ هذه القصة بابتداء قصة الأدب العربي، وتسايره في مضامير الحياة فتستقيم حيث يستقيم، وتنعطف حيث ينعطف، ويبرز من الشعراء العامليين مثل ما يبرز من شعراء العرب في جميع العصور، بدءاً – على ما نعرف – بعديّ بن الرقاع الذي كانت بينه وبين جرير مناوشات معروفة ما كان عديّ فيها أقل كفاءة من جرير، إن لم يكن قد تفوق عليه كما تشير كتب التاريخ... وتتوالى الأيام فيكون للعامليين أدباء أفذاذ عبر العصور، وبصورة خاصة في العصر الذي سمّوه عصر الانحطاط أو العصر المملوكي والعثماني، وصولاً الى العصر الحديث، وسبب ذلك أن هذه الفترة من الزمن جعلت للأدب العاملي شخصية خاصة مميزة، سنعود للحديث عنها. أما في العصور السابقة، فقد كانت الحركة الأدبية في دمشق والعراق تستوعب الشعراء جميعاً في ما يتجاوز الحالة الإقليمية، ولا تعود الى الخصوصيات التي نشأت فيما بعد بنشوء الدويلات والتيارات السياسية والفكرية في العالم الإسلامي والعربي.

أما المزايا التي رسمت ملامح الشخصية العاملية، وحدّدت خصائص الأدب العاملي، فتتمثل في ما يأتي:

١- العامليون عرب أقحاح:

لعلّة من المفيد أن نشير أولاً إلى نسبة العاملي، فهي الانتساب الى منطقة معينة من الأرض في بلاد الشام عرفت بأرض عاملة، وهي الأرض التي كانت هجرة قبلية عاملة العربية اليها، من اليمن قبل الميلاد وبما يزيد على ثلاثمئة عام بعد انهيار سد مأرب، وسيطرة هذه القبيلة على هذه المنطقة التي عرفت باسمها، وتشمل ما يعرف اليوم بلبنان الجنوبي.

وتبدأ عند مصب نهر الأولي من الجهة الساحلية، وتضاف اليها مدن وقرى من البقاع الشرقي والبقاع الجنوبي وجبال الجليل في فلسطين.. هذا في الأعم الأغلب. ثم دخلت هذه القبيلة وأهل المنطقة في التشيّع بعد أن نُفي إليها الصحابيّ الجليل المعروف أبو ذر الغفاري عليه الرحمة، فاعتنقت هذا المذهب حتى صار ذلك لها صبغة تعرف بها[1].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إن التسمية – العاملي – صارت اسماً لأتباع المذهب الجعفري حتى خارج الحدود الجغرافية للبلاد العاملية، وبهذا عرفت بلدان كثيرة في جوار البلاد العاملية كالبقاع وسواه، وكسروان بأنها بلاد عاملية. وعرف هذا الاسم – العاملي – خارج لبنان، في العراق وإيران وبعض دول الخليج العربي باسم أتباع المذهب الجعفري. وكان اسماً يحمل لأصحابه الإكباروالإجلال والتقدير نسبة لما كان لهم من صفات خاصة وإسهامات فكرية مختلفة جعلتهم أعلاماً في الأمة وموضع ثقة واحترام[2].

فالعامليون بهذا عرب أقحاح، ومن المجتمع العربي في الصميم في عاداتهم وتقاليدهم وفكرهم وتراثهم.. مما جعلهم يرتبطون بالفكر القومي ارتباطاً وثيقاً لا على طريقة الجاهلية، وإنما بما كان عند هؤلاء العرب من قيم خلقية وأدبية وفكرية ضمن إطار الفكر الإسلامي.

٢- العامليون مسلمون بامتياز:

والمقصود بهذا الكلام أنهم دخلوا الإسلام منذ بداياته، واتخذوه ديانة لهم. فدخلت عاملة في الإسلام، ثم لما كانت الهجرات العربية الى بلاد الشام إبّان الفتح الإسلامي دخل كثير من المسلمين هذه البلاد، واستقر الكثيرون منهم في لبنان في الساحل والداخل والجبل... ومنهم من كانت نسبتهم الى القبائل العربية المعروفة ومنها بنو هاشم بصورة عامّة والطالبيون بصورة خاصة، وما زالوا يفاخرون بهذه النسبة وتميّزهم عن سواهم بعض عاداتهم وتقاليدهم وأزيائهم أيضاً.

وعندما نفي أبو ذر الغفاري الى بلاد الشام اتخذ له من البلاد العاملية منطلقاً للدعوة إلى آل البيت ونشر مذهب التشيّع بين الأهالي، حتى غلب على العامليين انتسابهم للتشيّع إلى آل بيت النبي (ص).

---

(١) يراجع كتاب أصول الفكر العاملي للمؤلف ص ٧ وما بعدها...

(٢) المرجع السابق ص ٩ – ١٧.

٣- البلاد العاملية عاصمة الفكر الإسلامي الشيعي: (جزين – الشهيد الأول):

عرفت البلاد العاملية نهضة علمية كبيرة في تاريخها، ونشأ فيها علماء أفذاذ ما حصروا نشاطهم ضمن حدود هذه المنطقة الضيقة، بل اتجهوا الى جميع أقطار العالم الإسلامي لاكتساب العلم ونشره، حتى غدا عدد كبير منهم أعلاماً ذوي شأن عظيم في بلاد فارس والعراق وغيرها من المناطق. وأهم ما عرف عن هذه النهضة الفكرية في البلاد العائلية أن الشهيد الأول محمد بن مكي[١] صاحب جزين، صار رأساً لحركة الفكر الشيعي في العالم الإسلامي، وعندما أرخت الحالة الإسلامية العامة والظروف الصعبة التي كان الشيعة يمرّون بها في الزمن الذي غزا فيه المغول بلاد العراق، عندما أرخت هذه الحالة بثقلها على عاصمة التشيع آنذاك في العراق (الحلة) نقل المرجعية الشيعية في العالم من الحلة في العراق، إلى جزين في لبنان، وحوّل هذه المدينة الجنوبية الى قبلة عالم التشيع. ونشأ فيها علماء عظماء كثيرون، وأسّست هذه المدرسة لقيام مدرسة جباع العلمية المشهورة فيما بعد.. ولا يخفي ما لمثل هذا الأمر من أثر في تعزيز الحركة العلمية في البلاد العاملية، بحيث لا يعود غريباً ولا مستهجناً ما نسمعه من أخبار ازدهار هذه الحركة العلمية.

٤- معاناة العامليين في لبنان:

فرضت ظروف الحياة التي عاشها العامليون نفسها عليهم، فطبعت شخصيتهم بطابع فريد من نوعه، يتمثل أكثر ما يتمثل في اعتقادهم بالمذهب الجعفري – أي مذهب الإمامية الإثني عشرية القائلة بحق عليّ في الخلافة بعد محمد (ص) وبحق أولاده في الخلافة من بعده، ليتمّ عدد الأئمة اثني عشر إماماً معصوماً مكلفاً بتنفيذ الرسالة الإسلامية والسهر عليها بتكليف إلهي منصوص عليه في القرآن الكريم، مع ما كلّفت هذه العقيدة اجمالاً من الاضطهاد في جميع العصور السياسية التي تبعت عصر النبوّة، لما قام بين الفكر الديني الشيعي من جهة، والفكر السياسي عند غير الشيعة من جهة أخرى كان من نتيجته أن العقيدة الشيعية قد أنشأت الشخصية الشيعية على مبادئ وأفكار ومعتقدات أساسية منها الإخلاص لآل البيت، والوفاء لهم والثبات على هذه العقيدة لا يتزحزحون عنها ولو كلّف هذا الثبات على العقيدة الإنسان حياته. وكان لهم من حياة الآئمة وما لقوه فيها من الصعاب، وما واجههم من الاضطهاد ما جعل الشهادة والصبر عليها، بل وطلبها والسرور بهاعقيدة ومبدأ لا يحيدون عنهما.. ما عزّز في نفوس الشيعة روح الثورة والجهاد، يدفعهم الى ذلك عمق الإيمان، والشعور في قرارة أنفسهم بأنهم على حق.. ويربيّهم أبو ذر الغفاري على هذه العقيدة،

---

[١] (٧٣٤ هـ – ٧٨٦ هـ) = (١٣٣٣م – ١٣٨٤م).

فيتحصن الشيعي بالعلم والمعرفة التي تؤدي الى "الحقيقة" كما يعتقدونن وعند الوصول الى هذه الحقيقة تهون عليهم جميع الأمور الباقية.

فالعاملي إذن متشيّع لآل البيت، ساع وراء الحقيقة، ثائر لا يهاب الأعداء، لا يؤثر فيه ترغيب ولا ترهيب، وشعاره "ألسنا على الحق.. إذن لا نبالي أوقع الموت علينا أم وقعنا على الموت".

والعاملي مفطور على الأدب، يجب العلم، منفتح الذهن على الحقائق العلمية، يجب النقاش، صاحب حجّة وعقل وبرهان.. مخلص لعقيدته، ووطنه، وتراثه وأصوله، وماضيه.

هذه الصفات التي امتاز بها العامليون جعلتهم يثبتون في وجه أعدائهم أعداء العقيدة والوطن، وفي وجه كل ظالم.. فثبتوا في وجه مضطهديهم من أبناء المذاهب الإسلامية الأخرى، حتى كلّفهم ذلك فتوى القاضي ابن تيمية الذي أباح دماءهم وأموالهم، وأطلق يد الظالمين فيهم فسفكوا دماءهم، وقتلوا أئتمتهم فاستشهد عالمهم الأعظم الشهيد الأول محمد بن مكي صاحب جزين، وغيره كثيرون من العلماء. واضطهدهم الأتراك وولاتهم وعانوا من (بيدمر) والي السلاجقة وقراقوش وأحمد باشا الجزار وابراهيم باشا والأمير بشير... كما اضطهدهم الفرنسيون زمن الانتداب، وما نالوا حقهم من دولة الاستقلال فكانت حياتهم مآسي متطاولة لا تنتهي. فأجلوا عن ديارهم، واحتلت بلادهم، وشرّد بهم، وحرقت مكتباتهم، وحظر عليهم ارتياد أماكن العبادة، ووجهت اليهم – ولا تزال توجّه – اتهامات شتى أقلها الكفر – وحكم عليهم بأحكام مختلفة أقلها هدر الدماء.. مما نجد أخباره في كتب التاريخ والأبحاث التي اهتمت في العصر الحديث بصورة خاصّة في كشف حقيقة العامليين ودراسة ثقافتهم.

٥- حياة العاملين في بيئتهم:

هذا الواقع السياسي والاجتماعي الذي عانى منه العامليون كثيراً جعلهم يعيشون في بيئة مغلقة عليهم، ضمن جدران محكمة من الحقد والكراهية يخترقها الأعداء وقلّما يستطيعون هم أن يخترقوها إلا في فترات هدوء قليلة تغفل عنهم الأعين الرقيبة، أو تحت ستار التقيّة التي شرّعها الدين الإسلامي للمضطهدين.[١] مرتدين أزياء الأشاعرة وتحت رايتهم ليقبلهم المجتمع الذي عاشوا فيه.[٢] وبهذا استطاع بعضهم أن يخترق هذا الحصار الفكري ويكون فاعلاً جداً،

---

(١) الآية ٢٨ من سورة آل عمران.

(٢) مكي – محمد علي – لبنان من الفتح العربي حتى الفخ الإسلامي ص ٢٥٤ دار النهار ١٩٧٧.

ومؤثراً في الحياة الإسلامية عامّة، وفي حياة العاملين بخاصة، على نحو ما فعل الشهيد الأول الذي نسب الى الشافعية، وكان يفتي على المذاهب الخمسة، وذلك ليتسنى له أن يفتي على المذهب الجعفري المحظور في زمنه، وكانت أولى التهم التي وجهت اليه وسجن من أجلها ثم قتل لفتواه على هذا المذهب، وبسبب هذا الأمر أطلق عليه اسم الشهيد الأول[1].

وإذا أردنا بعض التفاصيل عن حياة العاملين الفكرية نجد أنه كانت هناك نهضة فكرية عامّة، أسسها ثقافة إسلامية شيعية جعفرية في موالاة أهل البيت (ع)، على خلاف ما كان عليه المحيط كله، بل اقتناع بالمذهب وأفكاره وتوجهاته، وإخلاص لمبادئ آل البيت، واستقامة عليها.. مما اضطرهم الى العيش في بيئة مغلقة إجمالاً على العامّة، مفتّحة أبوابها للخاصة الذين يعرفون كيف يتدبّرون أمورهم في المحافظة على أنفسهم، وعلى عقيدتهم ضمن بحر زاخر مضطرب متلاطم الأمواج، ولكنهم كانوا يعرفون كيف يسبحون في مثل هذه البحار فينجون، ويتصلون بعواصم الفكر في العالم الإسلامي من دمشق الى مصر إلى بيت المقدس، أو الى طهران او بغداد أو غيرها من مدن العراق حيث قد يستقرّ بهم المقام بين أمثالهم، فيبرزون ويصيرون حكاماً غير متوجهين إلا بتاج العلم والفضل والحظوة عن السلاطين.

وبهذا كان للعلماء من رجال الدين أهمّية كبرى في هذا المجتمع العاملي، وقد كثر هؤلاء، كما تشير الروايات، وصار كل عالم صاحب مدرسة، وفي كل قرية مدرسة أو أكثر، يتردّد اليها أهل العلم، وصارت في كل قرية مدرسة أو أكثر، يتردد إليها أهل العلم، وصارت مدرسة أشهر من مدرسة، وعالم أشهر من عالم... وعدد كبير من الناس من المتعلمين، وانتشرت ثقافة شعبية بين الناس على مذهب التشيع، يتثقف بها المتعلمون وغير المتعلمين...

وقد أحيا هذا الواقع الثقافي نزعة إلى الثقافة وحب العلم، تغذيها روح عربية أصلية في أساليب القول والكتابة، وإعجاب بالبيان الذي يفعل في النفس فعل السحر، واطلاع على أساليب القرآن البلاغية المعجزة وحفظها منذ نعومة أظفارهم، وينشأون على الفصحى التي هي عماد صلاتهم، ودعائهم في كل يوم، وفي كل ساعة، وفي كل مناسبة... مما جعل العامليين أصحاب ثقافة عربية أصيلة مميزة ما كان مثلها لغيرهم وبنفس المستوى وزاد عليها بعض عهود الازدهار الداخلي في ظل بعض الحكام ومنهم حمد المحمود.

---

(1) مكي – محمد علي – لبنان من الفتح العربي حتى الفخ الإسلامي ص ٢٥٤ دار النهار ١٩٧٧. والأمين – السيد محسن – أعيان الشيعة – المجلد التاسع – صفحة ١٤٩ وما بعدها..

ولم تكن الثقافة الدينية وحدها هي السائدة بينهم، بل أحيوا الشعر والنثر، وخاضوا مضاميره كأسلوب حياة ينظم بالفصحى وما فيها من فرائد بقيت محفوظة في ذاكرة العاملي، وما فيها من أساليب القول السهل الذي ينطلق على سجينه دون تعمل ولا تصنع...

ولا يخفى أن البلاد العاملية التي كانت جزءاً من ذلك المحيط العربي الواسع، وإن كانت تخصص نفسها بما تتفرد به، إلا أنها ما كانت بمنأى عن الأجواء الفكرية العامة التي تسبح فيها المنطقة بكاملها..

أما عن المدارس، فقد كانت مدارس عائلية يتوارثها الأبناء عن الآباء، حتى صارت مدارس للقرى، أو مدارس للعائلات، مما يجعلنا نقول بأن هذا الجو العائلي قد أثر في توجيه حركة الفكر العاملية، وصارت حركة للعائلات العاملية المشهورة، دون أن تكون حكراً عليها، بل هي مفتوحة لكل متعلم، ودون أن تكون أرستقراطية أو للطبقة الغنية، بل كانت للجميع، وللفقراء أيضاً، وما كان الناس في ذلك الوقت إلا فقراء، وما كان الأغنياء يرغبون في العلم إلا قليلاً، وكان "الفقر ثوب العلماء".

وأما طريقة التعليم في هذه المدارس فكانت على الطرق المشهورة يومذاك من دراسة اللغة في الكتب الدينية، ودواوين الشعر القديمة، وعيون النثر التي تحيا في الأذهان وتخلد فيها فلا تموت كسواها في بطون الكتب. هذا في المدارس الصغيرة. أما في المدارس الأكبر فكان هناك بعض التنظيم المتأثر بتنظيم الدراسة على ما كان معروفاً في النجف الأشرف. إذ يمر الطالب بمراحل، تمتاز كل منها بخصوصيات، وتستمد قوتها من قوة سيدها، إذ كانت المدرسة، والهيئة التعليمية فيها تختصر بشخص واحد متعدد الاختصاصات أو هو ذو ثقافة عامة على نحو ما يقتضي أمر تخريج رجال الدين العارفين بكل شيء، أو شيء من هذا الكل، لأنهم بالنتيجة سيتحولون إلى "مرجعيات" للناس، وموجهين وقادة.

هذا من ناحية عامة فكرية نظرية. أما من الناحية العملية، فقد كانت "المدرسة" تتحول إلى "خلية فكرية" في كل قرية، وهي جزء من الخلية الفكرية الكبرى في القرية، إذ كان الناس في كل مكان، وفي كل مناسبة، يتحولون إلى أدباء أو متأدبين على البيدر، وفي الحقل، وفي الأعراس، وجلسات الشاي مساء، والسهرات العامة والخاصة يتحدى بعضهم بعضاً في الأدب بصورة عامة، والشعر بصورة خاصة، ويحاول الواحد منهم أن يؤكد تفوقه على سواه، وبراعته وطول باعه في فن من الفنون ويحمسهم الناس، وينتصرون لهذا أو ذاك، أو يتآلفون فرقاً يقارع بعضها بعضاً. أما في المدارس، فكان الأستاذ يعد تلامذته لمثل هذه الثقافة،

ويمتحنهم، ويدربهم على قول الشعر، وكتابة النثر، فيطرح موضوعاً ويطلب من التلامذة النظم فيه، ويشرف على أعمالهم وأقوالهم، ويعدهم الإعداد اللازم.. وإذا اجتمعت القابلية مع الاعداد كان لا بد من النبوغ.

وقد اشتهرت في جبل عامل مدارس عديدة منها: مدرسة جزين، ومدرسة ميس الجبل، والمدرسة النورية في بعلبك، ومدرسة شقراء، ومدرسة الكوثرية، ومدرسة جبع، ومدرسة حنويه، ومدرسة بنت جبيل، ومدرسة عيناتا، ومدرسة النبطية، والمدرسة الحميدية.. (يراجع: تاريخ جبل عامل: محمد جابر آل صفا).

ثانياً: ملامح النهضة الفكرية العاملية في العصر الحديث:

مرت البلاد العاملية بفترات متفاوتة في الأمن والعلم والازدهار والتخلف... وذلك بحسب الظروف المحيطة ببلادهم علماً بأن واقع البلاد يبقى دائماً محكوماً، إلى حد ما – بظروف جيرانه ومن لهم علاقة به. وبحسب مستوى هذه العلاقة ونوعها. وما أهم فترات الأزدهار في حياة العامليين فنشير إلى فترتين اثنتين:

الفترة الأولى: وهي تمتد بين أواسط القرن الثامن الهجري وحتى أواسط القرن العاشر الهجري (من أواسط القرن الرابع عشر الميلادي حتى أواسط القرن السادس عشر الميلادي). وكانت جزين يومذاك مركز العلم بفضل جهود الشهيد الأول الشيخ محمد بن مكي العاملي الذي امتاز عهده بتخريج كبار العلماء العامليين الذين لم يقتصر أثرهم على البلاد العاملية، بل في كل أنحاء العالم الاسلامي. وتتميز هذه الفترة بأمور منها: الانفتاح الفكري والاتصال بمراكز العلم في العالم الإسلامي. والجمع بين الدين والسياسة، ومحاربة التيارات الفكرية المتطرفة، وقوة سلطة الفقهاء ورجال الدين على حساب رجال السياسة.

الفترة الثانية: وهي الفترة التي اصطلح على تسميتها بالعصر الحديث والتي تبدأ – بالنسبة للعامليين مع بداية القرن العشرين – وقبله قليلاً – وتمتد حتى منتصف هذا القرن (ونهاية الحرب العالمية الثانية). في هذه الفترة انفتحت البلاد العاملية على الحضارة بالتدريج، ولو بشكل جزئي، بعدما شهدت انكماشاً على الذات، واتخذت مواقف خاصة من الأجنبي ومن الأحداث التي جرت على البلاد العاملية وما يحيطها من البلاد العربية. وفي هذه الفترة تأثر العامليون بتيارات الفكر الغربي التي وصلتهم من المدارس بصورة خاصة، وحملتها الصحف، والإذاعات، والاغتراب والسعي في طلب العلم... مما وافق هوى في نفس العامليين للتجدد،

والثورة على القديم، ورفض الظلم والتحكم والاستبداد والسعي وراء القيم والأخلاق التي كانت أساس ثقافتهم الدينية الغالبة عليهم.

أما ما قبل النهضة الأولى، وما قبل النهضة الثانية فخوف، وفقر وخضوع يفرضه الحاكم الظالم المستبد، ويستكين له أحياناً الناس الذين لم يكن في أيديهم أية وسيلة من وسائل الدفاع عن النفس ورد الظلم الذي أسهم فيه نشوء الإقطاع السياسي الذي هيأت له وفرضته الدول الحاكمة، ثم شيء من الإقطاع الديني الذي نشأ بفعل واقع سيطرة رجال الدين على المواقع المختلفة، واعتبار هؤلاء أسياد الأمة، برغم أن بعض هؤلاء قد شغل مثل هذه المناصب بحكم الوراثة لا بحكم الفضل أو العلم. هذا مع الإشارة إلى بعض الحركات التحررية الداخلية المحدودة على نحو ما كانت حركة أدهم خنجر وصادق حمزة.

ويبقى السؤال: ما سبب هذه الثورة التي حمل لواءها بعض العامليين – ومنهم الشاعر موسى الزين شرارة – في مطلع القرن العشرين؟ وهي ثورة – كما نراها على لسان شاعرنا موسى الزين شرارة – كانت معركة عنيفة جداً، لا هوادة فيها، واستمرت مع الشاعر وعدد من زملائه مواقف وأسلوب حياة لا يتخلون عنه، مع العلم بأن عدداً من هؤلاء "الثائرين" كان من أوساط دينية أو إقطاعية سياسية، وبرغم ذلك فقد وقفوا في وجه الإقطاع بصورة عامة وفي كل وجوهه وأشكاله.

لا بد لنا هنا من أن نذكر بأن الإقطاع بمختلف أشكاله ووجوهه هو نوع من أنواع الحكم أو هو الحكم كله في الفترة التي نتحدث عنها. فالدولة قائمة على نظام إقطاعي، وهي تحمي هذا النظام. والإقطاعيون أدوات الدولة في الحكم، يحكمون بدون وجود أي رادع من قانون أو ما سوى ذلك، ويكون ظلم وطغيان واستبداد – كما في جميع المجتمعات والدول – وتقوم أحياناً بين الإقطاع السياسي والإقطاع الديني علاقات قوية، وقد يندمج هذا في ذاك وقد يؤازر هذا ذاك، عن حسن قصد أو عن سوء نية وضعف تقدير للعواقب... كما قد يتصارعان.. ويبقى بين الناس من يرفض كل ظلم، وكل طغيان، وكل موقف أعوج... تتكون الثورات.

هكذا نفسر مثل هذه الثورة. وهكذا كان شاعرنا موسى الزين شرارة في مجتمعه. على أن الملاحظ في الأمر أنه ليس جميع الحكام سواء في مواقفهم من الثائرين – وهم هنا الأدباء والشعراء بصورة خاصة – فكثيراً ما نرى بعض رجال الدين يحمون مثل هذه الثورات ويؤازرونها. كما أن كثيراً من رجال السياسة لا يرون في كلام الشعراء والأدباء

ومواقفهم ما يقصدهم بأشخاصهم... وتبقى بينهم وبين "الثائرين" علاقات طيبة، وحسن جوار، وحسن تعامل.. وهذا ليس غريباً حتى اليوم.

وإذا أردنا أن نتحدث عن طبيعة الأدب العاملي في كل من فترة النهضة الأولى والنهضة الثانية، فإننا نجد ما يأتي:

- **في الفترة الأولى:** (أواسط القرن الثاني الهجري وأواسط القرن العاشر الهجري) (أواسط القرن الرابع عشر الميلادي حتى أواسط القرن السادس عشر).
  - كان أدب العامليين في هذه الفترة أدباً ذا طابع ديني أي أنه كان متأثراً بالفكر الديني بصورة عامة من حيث موضوعاته، وأساليبه، وأبوابه الأدبية.
  - كما كان هذا الأدب متأثراً بحالة الأدب العربي العامة في ما وصلت إليه في ما بعد انقضاء الحكم العباسي، والتي اصطلح على تسميتها بعصر الانحطاط، وميزته في هذه الفترة: التقليد، والتقصير في الابداع، وضعف اللغة ركاكة الأساليب الأدبية..

هذا مع الإشارة إلى أن مناطق مختلفة من بلادنا العربية، واحات علم أدبي عديدة بقيت محافظة على نظارتها، وعطاءاتها الجميلة الرائعة، وأسلوبها الأدبي المتين، برغم الصحراء الجرداء القاحلة التي كانت تحيط بها من كل جانب.

- **في الفترة الثانية:** (من بداية القرن العشرين وحتى منتصف هذا القرن).
  - عرف الأدب العاملي نهضة أدبية متمثلة في ازدياد عدد المثقفين بالثقافة العصرية، فازداد عدد الأدباء والشعراء، وإن كان معظم ما كتبوه ينحو المناحي القديمة في الموضوعات والأساليب، مع تطور نوعي في الموضوعات والأسلوب أيضاً نتيجة تأثر الحركة الأدبية بالأوضاع الاجتماعية والحركات السياسية والأحداث التي زخرت بها هذه الفكرة، ونتيجة الاطلاع على الفكر الغربي.
  - وشكل الأدباء العامليون في هذه الفترة جزءاً من أدباء العربية بصورة عامة، ونتيجة التواصل الذي صار سمة العصر، تأثر هؤلاء الأدباء بالأفكار الأدبية العربية التي غزت عالمهم، ومنها ظاهرة الحداثة التي ما بقي الأدباء العامليون في منأى عنها، فانخرطوا في الحداثة، وسعوا إلى التجديد وحتى أنه صار اليوم من الصعب الحديث عن "أدب عاملي" خاص إلا ما كان يتخذ من القضايا العاملية موضوعاً له، ولا نرى هذا وحده كافياً لوصف أدب ما بصفات خاصة.

ثالثاً: موسى الزين شرارة (الشاعر الثائر):

من مواليد بنت جبيل في العام ١٩٠٢. توفي والده وهو في السادسة من عمره، وهو وحيد عائلته بحيث أنه كان لا أخاً له ولا أختاً ولا عماً ولا خالً ولا عائلة ذات نفوذ... نشأ عن الألم، وتربى على الحسرة.. مما جعله "مرهف الحس. يحس مع كل مصاب، ويتألم مع كل منكوب، ويهب لمساعدة كل مظلوم، ويحارب الجور والطغيان وكل أنواع الاستبداد، تعلم في مدرسة الشيخ أحمد مهدي شرارة، فقرأ عليه الأحرف الهجائية، والقرآن الكريم، ثم في مدارس محلية أخرى، ودخل بعدها المدرسة التركية (الأجنبية كما يسميها)[١] وكان التعليم فيها باللغة التركية، ومادته تاريخ تركيا وحضارتها والنشيد التركي وأغنيات باللغة التركية.. وكانت هذه المدرسة الوحيدة في بنت جبيل، وقد توقفت هذه المدرسة بانتهاء الحكم التركي في لبنان.

ويتحدث الشاعر عن ألوان الفساد الذي كان يسود البلاد في تلك الفترة من الزمن، بحيث لم يبق مجال من مجالات الحياة سليماً[٢].

شهد الشاعر التطورات التي حدثت في البلاد بعد رحيل الأتراك، ومنها قيام إمارة فيصل الأول في سورية، واندفاع العامليين وتأييدهم لهذه الإمارة وزعيمها، وما تبع ذلك من قيام حركات ثورية متعددة مثل حركة صادق حمزة، وأدهم خنجر ومحمود الأحمد... ثم دخول الفرنسيين إلى جنوب لبنان واحتلاله وتشريد أهله والقضاء على الحركات التحررية فيه.

كان يقصد مجالس رجال الدين الذين كانوا يتعاطون الأدب نظماً وحفظاً ورواية، ومراسلة... كما كانوا يهتمون باللغة اهتماماً كبيراً، فأتقن ذلك، ثم انطلق يقول الشعر، وينظم القصائد. وقد شجعه على ذلك نشر مجلة "العرفان" المشهورة للشيخ أحمد عارف الزين التي كانت تصدر في صيدا لبعض قصائده.

قامت بينه وبين أهل قريته بعض المناكفات لاختلاف النظرة إلى الأمور بما كان عنده من تطلعات منفتحة على الحضارة الحديثة وتتجاوز حدود المكان الذي ولد فيه، كما تتجاوز آفاق الاذهان في تلك القرية... مما أشعل نار حرب بينه وبين رعيل من القدامى كان من نتيجته أن

---

(١) من دفتر الذكريات الجنوبية، ص ٥٩ – ٦٠ – ٦٥.

(٢) المرجع السابق.

صنف الشاعر "كافراً" و "سفك دمه عام ١٩٣٣ بعد قصيدة بعنوان: لا تذكر الشرق[١]. وفي هذه القصيدة:

لا تذكـــر الشـــرق، لا تفخر بدولته ... ما الشـــــرق إلا خيال في حقيقتـــه
الشرق نضو نضوب الداء تنهشـــه ... ورأســـــه مـــــن قديـــم أس علنـــه
داء التعصب قدماً كـــــان آفتـــــه ... ولم يزل عثرة فـــي درب نهضتـــه
فكيف يبرأ هذا الشرق مـــن سقـــم ... ومدية الدين تفري فـــي حشاشتـــه
الشيخ حول للتفريـــــق جامعـــــه ... والقس يبـــذر حقـــداً فـــي كنيستـــه

وقام صراع – بعد ذلك – بين الشاعر ورجال الدين الذين انتصر فريق منهم للشاعر، مما شجعه على مواصلة مواقفه، مفرقاً بين الدين واستغلال الدين. ومن نتاج هذا الصراع هذه الأبيات:

قالوا: كفـــرت، فقلت: في أفعالكم ... وسخـــرت من تضليل كـــل مدجـــل
يغري الأنـــــام بعمة نسجت على ... نول الريـــاء لصيـــد كـــل مفضـــل
كبرت قماشاً، إنما صغـــرت حجى ... فبدت كبـــرج فـــوق حبـــة خـــردل
قسماً بقدس ترابها لو أنطقـــــــت ... لتألمت مـــن لمـــس تـــلك الأنمـــل
قد كنت أخشع إن رأيت عمامـــــة ... كخشـــــوع راهبـــة أمـــام الهيكـــل
والآن إن لاحت أفـــــر أمامهـــــا ... ذعراً فـــرار طريـــدة مـــن أجـــدل

ويشير الشاعر موسى الزين شرارة في محاضرة له في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي[٢]... إلى أن هذه الحالة الفردية، كانت صورة لحالة أكبر، تحولت فيما بعد إلى تكتل لجيل الشباب من العامليين، في العراق ولبنان، متمثل بـــ "عصبة الأدب العاملي"، ومن رفاقه فيها الشيخ محسن شرارة والشيخ علي الزين، والشيخ عبد الحسين عبد الله وسواهم... والتي سارت في ركب الشاعر، أو سار الشاعر في ركبها، فكانت لها مواقف من القضايا الدينية والاجتماعية، ثم ما لبثت أن تحولت إلى مواقف وطنية سياسية، أسست لمفاهيم سياسية ثابتة تنحو نحو العروبة، وتؤمن بمحاربة الانتداب الفرنسي، وتسعى لطرده من جبل عامل، وتحارب المتعاملين معه، والمتخاذلين والمستقلين... وكانت لهذا الفريق مواقف سياسية، أدت فيما بعد إلى قيام بتيار فكري سياسي، يتخذ العروبة عقيدة له، ويجعل من محاربة المحتل

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٧.

(٢) من دفتر الذكريات الجنوبية – دار الكتاب اللبناني – ١٩٨١ – ص ٦٩ وما بعدها.

والدعوة إلى الاستقلال نهجاً سياسياً ما زالت البلاد العاملية تسير عليه وتعتقده، يقول الشاعر من قصيدة:

بـــلادي يا جنـــــان الخلـــد حسنـــاً ... ويـــــا أرض النبـــوغ والابتكـــــار
فديتـــك لا تقولـــي راض شعبـــــي ... وأســـس للهـــــوان وللصغـــــار
أتذعـــــن للهـــــوان ونرتضيـــــه ... وفـــي إيماننـــــا بيض الشفـــــــار
إذن لسنـــــا الأبـــــاة ولا نمتنـــــا ... ليـــــوث الحرب من عليـــا نـــزار

ومنها:...

أفتيان الحمى وشبـــــاب قومـــــي ... ومـــن باتـــــت محبتهـــم شعـــاري
أقـــــول لكـــــم وقول الحـــر وحي ... وهـــا أنا ذلـــك الحـــر "الشـــراري"
بأن العهد – عهد الجـــور – أمسى ... علـــــى درب الـــزوال والانهيـــار
فويـــــــل للعميـــــل إذا التقينـــــا ... غداً ومشـــى أمام الشعـــب عـــاري

قامت مواجهات عديدة بينه وبين بعض رجال السياسة والزعماء الاقطاعيين في مناسبات مختلفة، أبدى فيها الشاعر جرأة وتحدياً لهؤلاء، وفي عقر دارهم، وساهم في النشاطات الاجتماعية والسياسية وعمليات الاقتراع لانتخاب النواب في زمن الانتداب، وكان من المتحمسين في حربه له (الانتداب)، كما شارك في انتفاضة مدينته بنت جبيل سنة ١٩٣٦ انتصاراً لقضية مزارعي التبغ التي ما لبثت أن تحولت إلى قضية وطنية في الجنوب كله، وسجن الشاعر مع من سجن في تلك المناسبة مدة شهر تقريباً... كما كانت له إسهامات سياسية لبنانية عامة، وفي مناسبات مختلفة إلى جانب الزعيم عبد الحميد كرامي (عام ١٩٤٩) ورياض الصلح.

وكانت له مواقف اجتماعية لافتة منها موقفه من تحرير المرأة من العادات والتقاليد الاجتماعية التي كانت تكبلها. هذه المواقف التي أدخلته في معركة اجتماعية جديدة لا تقل حدة عن المعارك السياسية التي خاضها.

حارب الانتداب الفرنسي مع من حارب هذا الانتداب، وانخرط في أجواء الحركة العربية التي كانت تدعو إلى قيام دولة عربية في سورية بزعامة فيصل الأول...

أما العوامل التي أثرت في حياته فيمكن أن نذكر منها:
١- الأجواء العامة السياسية والاجتماعية في المنطقة بصورة خاصة.

٢- الأحداث التي جرت في الجنوب في زمن الانتداب.
٣- اتصاله بالاجواء العربية العامة في سورية وفلسطين زمن الانتداب الفرنسي والانكليزي.
٤- الاتصال بعدد من الادباء اللبنانيين والعلماء والمفكرين والشعراء الذين كانوا يمثلون طليعة المثقفين العامليين، في كل من بنت جبيل والنبطية وغيرها من المدن الجنوبية...
٥- التنقل بين المدن العربية - بحكم عمله في التجارة - مثل دمشق ودرعا وحيفا...
٦- اغترابه عن لبنان إلى افريقية للعمل في التجارة.
٧- عمله في مجال الخدمة الاجتماعية والسياسية كعضو في المجلس البلدي في بنت جبيل، ثم رئيساً له..

توفي الشاعر موسى الزين شرارة عام ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، بعد أن أهلته مواقفه الاجتماعية والسياسية والوطنية والقومية، والتي نجدها تضج بها قصائده، لأن يكون زعيم حركة نهضة اجتماعية سياسية وطنية وقومية، ينضوي تحت لوائها عدد من الشعراء. وكان الشعر هو الأداة التي حملتها إلى الناس والمجتمع. مما يجعل الإصلاح الاجتماعي والوطني... عنده أولاً، وتأتي الشاعرية بعد ذلك وسيلة تحقق تلك الأهداف الكبيرة.

رابعاً: موضوعات تناولها موسى الزين شرارة في شعره:

في اطلاعنا على ما كتبه موسى الزين شرارة من الشعر مما وجدناه في مجلة "العرفان"، وفي ما جمعه الباحثون له من القصائد، وهو لم يترك ديواناً يجمع هذه الأشعار جميعها،... يمكن أن نصف شعره بما يأتي:

- كان شعر مناسبات، أو قل شعراً اجتماعياً بالدرجة الأولى.
- كما كان شعراً سياسياً بامتياز.
- أبواب هذا الشعر من الأبواب الأدبية المعروفة: في المدح قليلاً، وفي الرثاء والهجاء والفخر والحماسة والوطنية، وقليل منه في الوصف والغزل.
- الشاعر حامل رسالة تطوير للمجتمع تناولت الأوضاع الآتية:
  - وظيفة رجال الدين في المجتمع، وصفات رجل الدين.
  - دعوة إلى العمل في سبيل الوطن.
  - دعوة إلى إحياء الفكر القومي لاستعادة أمجاد قديمة.
  - الدعوة إلى تحرير المرأة.
  - الاستفادة من الثورات التاريخية ومواقف أعلام الأمة لتبنى عليها الأخلاق.

خامساً: نماذج من شعره:

قلنا إن الشاعر لم يتخصص في نوع واحد من الشعر اشتهر به أكثر من سواه، وإن كان شعره سياسياً بامتياز، إلا أن الشعر السياسي لا ينحصر في فن أدبي واحد، ولا في موضوع واحد، فيكون – حتى الغزل – شعراً سياسياً، كما نعرف من العصر الأموي وتجربة الشعر السياسي فيه.

من هنا نجد أن شاعرنا ليس مداحاً كالمتنبي، ولا رثاءً أو وصافاً كابن الرومي، ولا وجدانياً كأبي فراس الحمداني، ولا هجاءً كجرير مثلاً أو بشار بن برد.. ولكن كان في شعره هؤلاء جميعاً، أو شيئاً منه.

ومن هنا أيضاً اخترنا له مقطوعات من هذا الشعر، تفيدنا في تكوين صورة عن الشاعر في موضوعاته، وأدائه الفني الأدبي، ومنها ما يأتي:

١- وظيفة الشعر وخصائصه:

يا أيها الشعر الذي نزهته ... من أن يقول الكذب والفحشاء
وجعلته للتائهين هداية ... وجعلته للقانطين رجاء
ما أنت لي شعر إذا لم تسقني ... إما ظمئت من المجرة ماء
إني أعيذك أن أراك مسخراً ... تطري النعوت وتمدح الأسماء
وأعيذ مجدك أن أراك ممجداً ... إلا الكرام الصيد والأكفاء

٢- علاقة الشاعر بالمجتمع:

حنانك الله كم يشكو بموطننا ... أخو اليراع وكم يلقى به الثوبا
ما للأنام وفن كله ألم ... جر البلاء على أهلية والنوبا
قد كنت أغبط أهل الشعر معتقداً ... أن لا حياة لمن لم يدرك الأدبا
حتى إذا صرت منهم وابتليت به ... رحمت كل فتى بالشعر قد نكبا

يريد مني زعيمي أن أمجده ... ومن زعيمي لقيت الويل والحربا
فكيف يدعى زعيماً من يبيع ... ردا العاني الفقير ليكسى الخز والقشبا
ومن يدمر كوخاً فوق ساكنه ... ليبتني فوقه الأبراج والقببا
وإن مشى خلت طاووساً تقمصه ... لو أن أجنحة للمرء أو ذنبا
أوصال يوماً على أبناء قريته ... حسبت ليث الشرى دون الشرى غضبا

لكن على الرغم من ذا ببن أضلعـــه ... نفس بقاموسهـــا لفظ الإبا شطبـــا
رأيتــه عبـــد رق للقـــوي فلـــو ... شاء القوي عليـــه حمـــل الحطبـا
والشيخ يطلب أن أحنـــي لديـــه إذا ... لقيته، هامتـــي، أو ألـــثم التربـا
ولم يفدنـــي بعلم منـــه أو عمـل ... ولا أزاح الشقاعنـــي ولا الكربـــا
ولا مشـــى مصلحـاً أو داعياً لهدى ... فلـــم علـــي إذن تمجيده وجبـــا

إن يصلبونـــي فمـــن قبلـــي وقبلهـــم ... بكـف شر الورى أزكى الورى صُلبا
أو يقتلونـــي فحسبـــي أننـــي رجـــل ... أدى الرسالة ما مـــارى ولا كذبـــا

٣- قصة الشاعر مع بني قومه:

وضعتنـــي الأقدار مـــا بيـــن قـــوم ... لا يراعـــــون ذمـــة للضميـــر
صغـرت منهم النفـــــوس فأمســوا ... كالمواشـــــي تقودهم "بالصفيـــر"
يعبـدون القـــــوي لا لخـــــلال ... ساميـــــاتٍ، ولا لعلم وفيـــــر
قمـت أبكي لمـــا رأيـــت بـلادي ... - جنـــــة الخلد- مرتعـــاً للشرور
ورأيـت الديـــن الحنيـف حساماً ... بيـــــدي كـــل خانـع مأجـــور
والفقيـر الضعيف مـا بيـــن شيـخ ... وزعيـــم كالشلو بين النســـور
فاستشاطـوا غيظـــاً وقالوا: مضـل ... ورمونـــــي بالبغـى والتزويـــر
فاحتملـت الأذى وقلـــت لنفســـي: ... حصنـــــك الحق لا تراعي وثوري
كل عصـــر له حسين وشمـــــر ... حكمة الله قبـــل خلق العصـــور

٤- الزعماء أعداء الشعب:

شبابنـــا البســلاء هل مـــن نهضـة ... تسمـــو بموطنكم إلـــى عليائـــه
فـإذا الشبـاب تقاعست عن نصـره ... فمـــن الذي يرجى إلـــى إحيائـــه
أتـراه يرجـو الخير مـن زعمائـه ... والشـــر كل الشر مـن زعمائـــه
هـم أسملـوه إلـى المذلـة والشقـا ... هـــم عين علتـــه ورأس بلائـــه
أرأيـت أسـوأ حالـة مـن موطـن ... أبنـــاؤه والدهـــر مـن أعدائـــه

٥- هجرة الشاعر (ولكنني حر):

فـلا تحسبـي أنـي ترحلت للغنـــى ... فـلا والعلى مـا مـر ذلك في فكري
ولكنني حـر - كمـا تعرفيننـــي - ... أبـي، وأوطانـي تضيـق على الحر
دعيني بجـو الشعـر حراً محلقـــاً ... بعيـداً عـن الدنيا، بعيـداً عن الشـر

دعينـــي كهذي الطير أشدو قصائـــدي ... علـــى جانب الوادي، على ضفة النهر
ولا تطلبـــي منـــي إياباً لموطـــن ... تســـاق بنوه كالسوائم للزجـــــر
علي حـــرام ربعـــه طالمـــا بـــه ... شبـــاب يلاقي "البيك" بالطبل والزمر
أقومي! مالـــي لا أجـاب كأنـمـا ... أخاطـــب إذ أدعوكم يابس الصخـر
ألا نخبة منكـــم غلـت في عروقهـا ... ومـــاء أباة من نزار ومن فهـــر
تهب هبـــوب الليـث ريعت شبولـه ... إذا مـا ذعا الداعي، وننقض كالصقر
فنسحق إقطاعيـــة فـــي جدودنـا ... أوائلهـــا عاثـت، فنأخـذ بالثـــأر

٦- كل الحاكمين دخيل:

لا تخدعـوا التاريـخ مـا في أرضنا ... غنـــدي ولا فـي أرضنا زغلول
مهلاً عليكـــم إن ملكـــاً أسـه ... قهـر الخصـــوم وكيدهـــم سيزول
هذي البـــلاد بطولها وبعرضهـــا ... للفقـر فيهـــا مربـع ومقيـــل
سادت بهـــا الفوضى فلا قانونهـــا ... يحمـي الحقـــوق، ولا القضاة عدول
أبناؤها، رغـــم الأخوة بينهـــم ... اثنـان فيهـــا: قاتـــل وقتيـــل
قلبت كما شئتـــم لهـــا فذليلهـــا ... حـــر عزيـز والعزيـــز ذليـــل
كنا قديماً فـــي دخيـــل واحـــد ... واليـــوم كـل الحاكميـن دخيـــل

٧- حب الوطن (تحية المولد النبوي):

ألا يـــا ليت شعري أي مـــــدح ... يفـــي هذي الخـــلال وذي المعاني
تبعتـــــك لا لأن أبـــي وأمـــي ... مباديـــك الشريفـــة غـذيانـــي
فلـســت مقلـــداً إلا ضميـــري ... ولا مستلهمـــــا إلا جنـــاني
لـذا بات الزمـان علـــيّ حربـــاً ... يطاردني، وأبنـــاء الزمـــان
لقـد صارحـت أهل الديـــن لمـــا ... رأيـــت الدين عرضـــة الامتهـان
فثـــاروا، بعضهم يفتـــي بقتلـــي ... وبالإلحـــاد بعضهـــم رمانـــي
فكـــم عانيت من أهلـــي وقومـي ... وها أنـــا لـــم أزل منهم أعانـــي
يحقـــر عندهـــم فـــذ وحـــر ... ويكـرم عندهـــم غـــر وجانـــي
ألا يـــا ليتنـــي لمـــا براهـــم ... أذلاءً، بـــلا حـــس بـــرانـــي
ذنوبي عندهـــم أنـــي صريـــح ... فـؤادي إن نطقت علـــى لسانـــي
وأني هائـــم بهـــوى بـــلادي ... هيام شبـــاب عـــذرة بالحســـان

ولـــو مـــا لأت في وطني دخيـــلاً لكنـــت اليوم "عضـــو البرلمـــان"
فيا وطنـــي الحبيـــب هواك دينـــي وصوتـــك إذ تناديـنـــي أذانـــي

٨- حملة على رجال الدين:

أمكبّـــراً حجـــم العامة لا تخـــل أن العمامـــة لم تـــزل تغرينـــي
الدين صـــــوم أو أداء فريضـــة لله أو لســـــواه، لا يعنينـــي
الدين – كل الدين – لا أوذيـك فـــي ســـــرّي ولا تـــؤذينـــي
ديـــن يفرقنـــا ويبـــذر بيننـــا الشحنـــاء والبغضاء ما هو دينـــي

٩- التحدي:

اسجنونـــا وضـايقـونـا وشـــدوا مـــا استطعتم وثاقنـــا والقيـــودا
وامـــلأوا الجو فوقنـــا طائـــرات واملأوا الأرض عـــدة وعـــديدا
لا نبالـــي، ولا نقـــــر لضيـــم لا، ولا نرتضي الحيـــاة عبيـــدا
تشهد الأرض والسمـــــاء بأنـــا عن هوى الشام لحظـــة لن نحيـــدا
هي في القلـــب والحشاشـــة منـــا فليقيموا حواجـــــزاً وحـــدوداً
وليقولـــوا: أميـــــة وحسيـــن وليشقوا من كربـــــلاء اللحـــودا
في هواها وفـــي سبيـــل هناهـــا نرتضي حاكماً علينـــا يـــزيـــداً

١٠- دعوة إلى النهوض:

أفـــق يـــا أيها الشعب المفـــدّى فـــإن الصبـــح بـــان لكل ناظر
أترجو مـــــن حماة الدين خيـــراً وهـــا هـــم بالتبايـــن كالضرائر
فباتوا اليـــوم تجـــاراً لحاهـــم سلاللـــم للوظيفـــة أو متاجـــر
لرب الدين أشكوهـــم لصوصـــاً مسوحهـــم الكمائـــن والمغـــاور
وأشكـــو "جبـــة" وارت وراهـــا وأخفـــت حاذقـــاً بالصيد ماهـــر
و "عمـــات" دكاكينـــاً وسوقـــاً يبـــاع الديـــن فيهـــا والضمائـــر
حمـــاة الديـــن إن الديـــن عـــدل على الطغيان منـــا ثـــار ثائـــر؟
عـــلام يثـــور ثائركـم إذا مـــا يعـــادي كـــل طاغيـــة وجائـــر
أخا الأحرار لا يذهـــلك إمـــــا شتمـــت علـــى المـــآذن والمنابر
وقالـــوا وادعـــوا إفكـــــاً وزوراً بأنـــك ملحـــد بالديـــن كافـــر
أمـــا صلبوا علـــى الأعواد عيســـى وقالـــوا عـــن أبي الزهراء: ساحر

١١- من قصيدة: أنت مثلي (يحدث الطائر)، فيقول:

أتـرى يـوجـد فـي عالمكـم ... أيهـا الطيـر طروب وحزيـن
أم تـرى يوجد كالنـاس بكـم ... أثـريـاء وعفـاة معدمـون
ولصـوص سرقـوا أوطانهـم ... فتسمـوا بالغـزاة الفاتحيـن
وتسميتـم وقـد شردكـم ... بغيهـم عن أرضكـم "باللاجئيـن"
أو طغـاة أقويـاء اغتصبـوا ... بفضاكـم لقمـة المستضعفيـن
أكلوا مـن جوعكـم مـا أكلـوا ... واكتسـوا من عريكـم كل ثميـن
وأذابـوا دمعكـم في كأسهـم ... بنـت كـرم لـذة للشاربيـن
وادعـوا إفكـاً وزوراً أنهـم ... مـن لجيـن وجميع الناس طيـن
جعلـوا منا ومـن أوطاننـا ... جسـر ذلٍ أبـداً للعابريـن
وأمتطونـا كالمطايـا حقبـاً ... وعلـى آلامنا عاشـوا سنيـن
جـردوا الدهمـاء سيفاً قاطعـاً ... مرهفـاً فوق رؤوس المصلحيـن
لا سقى الغيـث لهـم ربعـاً ولا ... رحـم الله الجـدود المورثيـن

١٢- معركة التبغ:

لا السجـن يثينا ولا الإرهـاب ... مـا شئت فاصنع، ما عليك عتـاب!
يا أيها العافـي رويـدك طالمـا ... مـادت قديمـاً بالعتـاة قبـابُ
قل للذي يطـري الزعامة بيننـا ... ما ترعـوي يـا أيهـا الكـذاب؟!
أزعامـة هـذي، وذي أوطاننـا ... فيها يعيـث ويعبـث الأغـراب؟
لا تعجبـن هي حالة الشعب الـذي ... برؤوسـه تتحكـم الأذنـاب
سموهم خشبـاً، فقلـت: هجـو ... تم الأخشاب: هـم لنـا ومصـاب
قسمـاً – ولست مغالياً – لو أنهـا ... علمـت بذاك احتجـت الأخشـاب
يتناهشون لحـو منـا ودماءنـا ... هذي طعامهـم، وذاك شـراب
الأجنبـي لهـم – برغـم أنوفنـا – ... رب يطاع، وهـم لنـا أربـاب
الأحمر القانـي يحـرر موطنـي ... ما الاحتجاج! ومـا هو الإضـراب؟!
حريـة الأوطـان حسنـاء لهـا ... فيض الرقاب مـن الشباب خضـاب

١٣- معاناة ابن الجنوب:

يقـول ابن الجنـوب ولا سميـع ... مـن الحكـام، أو مصـغ إليـه
يقـول بحسـرة وبـألـف آه ... كمشبوب اللظـى فـي جانبيـه

وينشـد والدمـوع الحمر تجـري ... كميـزاب فتفـرق مقلتيـه:
"أليـس مـن العجائـب أن مثلـي ... يرى مـا قـل ممتنعـاً عليـه"
"وتجبـى باسمـه الدنيـا جميعـاً ... وما من ذاك شـيء في يـديـه؟"

١٤- في فريتاون سيراليون

في أواخر سنة ١٩٣٨ تشرين الأول.

حطمـت أقلامي وعفـتُ محابـري ... ومسحـت بالقرطـاس نعل حذائـي
مالـي وللأقـلام بيـن معاشـر ... سخـروا مـن الأقـلام والأدبـاء
وطـن بـه راج الريـاء فليتني ... بدلـت ثـوب صراحتـي بريـاء
لـولا الصراحة لم يضق بي موطني ... وهـو الفسيـح الرحـب للغربـاء
ولمـا رأيت عمائمـاً مأجـورة ... تفتـي بتكفيـري وسفك دمائـي

١٥- في عهد الاستقلال:

يـا سادة العهد عفواً إذ يقول لكـم ... مثلـي: سـلام علـى عهـد الشياطين
هاتـوا بلبنان حراً غير مضطهـد ... هاتـوا شريـفـاً نزيهاً غير مديـون
بينا محاسيبكم باتـوا - ولا حسـداً - ... مـن احتكـارات مازوت وبنزيـن
ورشـوة وشفاعـات وسمسـرة ... أهـل القصـور وأصحاب الملايين..

١٦- من الشعر القومي (يوم ثورة القسام):

أسـد بأرض القـدس أم ثـوار ... مـاذا تـرى يا أيها الطيـار
هـذي فلسطيـن أمامـك فاتعـظ ... هـل راعهـا المستعمر الجبـار
صمـدت له والحـق كل سلاحهـا ... والغـاز بعض سلاحـه والنـار
يتهافتـون على المنـون كأنهـا ... كـأس عليهـم بالرحيـق تـدار
الله أكبـر في الجهـاد شعارهـم ... وهتافهـم حمـد أو استغفـار
لشبيبة كالأسـد بأسـاً ما بهـم ... مستأجـر وغـد ولا سمسـار
شبانهم فـي الروع فتيـة خيبـر ... وشيوخهـم فـي ساحها الكـرار
الكـل بـاع لأرضـه ولشعبـه ... نفسـاً فـلا طمع ولا استئثـار
أرض المعـاد، ودار مريـم وابنهـا ... مـا أنـت للمستعمرين ديـار
ما العار إن متنـا كرامـاً في الوعى ... نهب السيـوف، بل الحياة العـار!

١٧- موقفه من المرأة:

بنية إن غنت على الغصن في الضحى ... لزهـــر الرُّبى والروض ابنة طائـر
فغني، فبنت الطير ابنـــة شاعـــر ... تغنـــي، وأنت مثلها بنت شاعـــر
وكوني - إذا كانت عروساً جميلـــة ... عـــروس النوادي أو عروس المنابر
وإن هي علاها الجنـــاح فحلقـــي ... بطهـــر وخلـــق فاضل ومآثـــر
وبالعلم إن باهـت فتـــاة بحسنهـــا ... وبالشعرو الآداب باهـي وفاخـــري
وخلي لبنت العصر زيـــا وزينـــة ... وبراق عقد زائـــــفٍ وأســـاور
أرى العلم أحلى للفتاة مـــن الحلـــى ... وأبهى لها من ماسهـــا والأســـاور
وأحسن للحسناء من حســن وجههـــا ... وأصين مـــن أبرادهـــا والمـــآزر

الدكتور صادق مكي